عَلَى سَاحِلِ الْآمَال ، وَقَفَتْ نَاظِرَةٌ إِلَى حَيَاةٍ زَاهِرَةٍ - Subject

# حَلَاوَةُ الْأُمُومَةِ

هُوَ فِي فِكْرٍ عَمِيقٍ فِي مَنْظَرِهِ ذَاكِرَةُ الْمَاضِيَةِ . كَأَنَّهُ فِي النَّوْمِ الْعَمِيقِ . ظَهَرَتْ ذَاكِرَتُهُ مِثْلَ سَهْلِيَّةٍ صَغِيرَةٍ وَاحِدَةٍ بَعْدَ وَاحِدَةٍ . بَعْضُهَا حُلْوَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهَا مُرَّةٌ . اِنْقَطَعَ ذَاكِرَتُهُ بِصَوْتٍ خَادِمَةٍ فِي الظَّاهِرَةِ : " يَا سَيِّدِي ، سَبْغِي الشَّايِ أَوِ الْقَهْوَةِ ؟ " . اِسْتَيْقَظَ مِنَ النَّوْمِ . وَفَتَحَ عَيْنَاهُ . وَإِذَا رَأَى أَمَامَهُ اِمْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ عَلَى وَجْهِهَا تَبَسُّمُهَا حُلْوَةٌ . وَسَأَلَ أَيْضًا : " سَبْغِي الشَّايِ أَوِ الْقَهْوَةِ ، يَا سَيِّدِي ؟ " فَاخْتَارَ الشَّايَ . ثُمَّ شَرِبَ قَلِيلًا قَلِيلًا . نَظَرَ إِلَى السَّاعَةِ ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِهِ نِصْفُ سَاعَةٍ فَقَطْ ، إِقْتَرَبَ إِلَى بَلَدِ الْجُنُونِ وَيَصِلُ إِلَى بَلَدِ الْوَلِيدِ طُولَ فَتْرَةٍ عِشْرِينَ سَنَةً . فِيهَا وَالِدَيْهِ الْجُنُونَةَ وَفِيهَا بَيْتِهِ الَّذِي اِنْشَأَتْ وَلَا حِينَ لَيْسَ لَهُ عَلَاقَةٌ إِلَى هَذِهِ الْبَلَدِ طُولَ سَنَوَاتِ الْمَذْكُورَةِ . يَنْتَبِهُ الْمُسَافِرِينَ لِلْإِحْتِفَاظِ . لِأَنَّ الظَّاهِرَةَ قَدْ هَبَطَتْ بَعْدَ قَلِيلٍ :

خَرَجَ مِنَ الْمَطَارِ إِلَى الْخَارِجِ بِحَقِيبَةٍ ضَخْمَةٍ. رَأَى كَثِيرٌ مِنَ الْوُجُوهِ غَيْرَ مَفْهُومٍ. نَظَرُوا إِلَى التَّاخِلِ مَعَ الرَّجَاءِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أَقْرِبَائَهُمْ - الْإِنْتِظَارُ الْحُلْوَةُ.

قَالَ: "كَمْ مِنْ سَنَةٍ سَتَعْتَبِرُ هُنَا، هَذَا بَلَدِي أُمَّ الْخَلِيجِ! وَاللهِ عَجِيبٌ". قَدْ سَتَغَيَّرَ بَلَدِهِ وَسَتَغَيَّرَ النَّاسُ أَيْضًا. سَتَغَيَّرَ فِي الْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ وَالْمَبَانِي وَالشَّوَارِعِ هَذَا مِثْلَ الْخَلِيجِ!

نَادَى: "سَيَّارَةُ الْأُجْرَى، سَيَّارَةُ الْأُجْرَى" إِقْتَرَبَ إِلَى سَيَّارَةٍ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ لِسَائِقِ إِلَى دَلْهِي. وَضَعَ السَّائِقُ الْحَقِيبَةَ وَالْأَشْيَاءَ عِنْدَهُ إِلَى دَاخِلِ سَيَّارَةٍ. جَلَسَ عَلَى مَقْعَدٍ لَيِّنٍ وَالْتَفَتَ السَّائِقُ إِلَى الْوَرَاءِ. ثُمَّ سَأَلَ: "صَاحِبِي، نَذْهَبُ؟" قَالَ: "نَعَمْ، نَذْهَبُ". إِنْتَقَلَ سَيَّارَةٍ نَحْوَ دَلْهِي. نَظَرَ إِلَى الْخَارِجِ فَرَأَى كَثِيرٌ مِنَ الْمَنَاظِرِ مُلَوَّنَةٌ وَغَيْرَ مُلَوَّنَةٌ. فَرَأَى مَرْأَةً عَجُوزَةً فِي الطَّرِيقِ مِثْلَ أُمِّهِ. فَعَجِبَ. طَلَبَ مِنْ سَائِقِ سَيَّارَةٍ أَنْ يَقِفَ السَّيَّارَةَ. ثُمَّ نَزَلَ مِنَ السَّيَّارَةِ فَمَشَى إِلَى مَرْأَةٍ عَجُوزَةٍ، إِذْ يَتَعَرَّفُ أَنَّهَا لَيْسَ أُمَّهُ. رَجَعَ إِلَى السَّيَّارَةِ يَأْسًا وَجَلَسَ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ.

إِنْتَقَلَ سَيَّارَةٌ قَلِيلًا. إِذْ رَأَى مَنْظَرٌ. سَبْعَ

مَرْأَةٌ ... بِرَضِيعٍ صَغِيرٍ إِلَى الْمُسْتَشْفَى. وَتَلَفَّ بِثَوْبِ
لِمُحَافَظَةِ الرَّضِيعِ. فَكَّرَ عَنْ أُمِّهِ هِيَ تَحْمِلُ الْهُمُومَ
بِسَبَبِهِ مَرَاتًا كَثِيرَةً: فَحَزَنَ حُزْنًا شَدِيدًا. فَظَهَرَ
فِي مُخَيِّلَتِهِ بَسْمَتُهُ وَقَرْبَتُهُ وَأَيَّامُ طُفُولَتِهِ وَذِكْرَيَاتٌ
بِأُمِّهِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمِّهِ.

رَأَى فِي مَنْظَرِهِ صُورَةَ وَالِدَيْهِ النَّحِيفَةَ. وَمَلَأَ بِسُهَا
الْبَالِيَةَ. وَمَرَأَى الْخَوَاطِرَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي وَجْهِ أُمِّهِ
بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَقْرِ وَالْجُوعِ. وَسَبَبُ لِتَسْوُدِّ
وَجْهِهَا مِثْلَ الْعَمَامِ السَّوْدَاءِ. وَكَمْ مِنْ مَتَاعِبَ
وَمَشَاقٍّ فِي تَرْبِيَةٍ وَطُؤْمَةٍ لِإِبْنِهَا. وَحَزِنَتْ بِسُوءِ
حَالِهِ إِذَا رَأَى الْأَطْفَالَ وَذِهَابَهُمْ إِلَى الْمَدَارِسِ وَالْأَسْوَاقِ
وَذَلِكَ الْبَيْتَ. الَّذِي أَنْشَأَتْ لَهُ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَهِيَ
كُوخًا صَغِيرًا. إِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ عَلَيْهَا لَمْ يَصِلْ الْمَاءُ
إِلَى الْخَارِجِ. وَمَا هَبَّتْ فِي رِيحٍ، وَهَذَا لَحْظَنَا فَقَطْ!

ذَكَرَ: وَالذَّهَابَ إِلَى مَدْرَسَتِهِ فِي صَبَاحِ أَيَّامِ
الْمَطِيرَةِ هَذَا عِقَابٌ لِي إِنْ لَمْ يَكُنْ أَصْدِقَائِي ظَلَّ مِنْ
هَذَا الْمَطَرِ إِلَّا أَوْرَاقَ الْقُلْقَاصِ. وَبِلَّكَ قَمِيصَ الْقَدِيمِ
بِالْمَطَرِ وَبِالْبَرْدِ لِهَذَا الْمَطَرِ وَقَدْ انْحَنَى هَذَا الْبَرْدُ إِلَى
أَضْلَاعِي. وَتَسْتَهِي الْمَدْرَسَ الصَّفَّ فِي صُوَرِ. خُشُوعٍ:

"مَا هٰذَا الشَّكْلُ؟ أَأَنْتَ ذَهَبْتَ مِنَ الْبَيْتِ أَمِ الْغَابَةِ؟"
وَبَسَّمَ أَخِيرًا: وَالِدِيَّ الْآنَ. كَفَلَنِي. وَمَا عَرَفَ الْمُدَرِّسُ
مَنْ أَبِي. وَأَنَا أَيْضًا مَا عَرَفْتُ. مَنْ أَبِي. وَسَأَلْتُ لِوَالِدِي
مِنَ الْمَنَاصِبِ الْمُشْكِلَةِ. مَنْ أَبِي. سَكَتَ أُمِّي. سُكُوتًا
طَوِيلَةً أَمَامَ سُؤَالِي. وَلِي حَسَدٌ لِزُمَلَائِي إِنَّ لَهُمْ أَبَوَانِ.
وَسَبَبُ لِشِدَّةِ الْأَزْمَاةِ. السِّنِّ. وَاجَهْتُ فِي وَقْتٍ صَغِيرٍ.
هِيَ عَدَمُ. وَالِدِي الضَّرْبُ. وَالسَّيِّئَةُ. وَالْعِقَابُ. الَّذِي.
اِهْتَزَّنِي. كُلُّهَا لِذٰلِكَ السَّبَبِ. وَمَعَ كُلِّهَا أُحِبُّ الْخُرُوجَ
إِلَى. مَدْرَسَتِي وَتَأْثِيرٌ لِذٰلِكَ. الْخُرُوجِ. الْمَشْرُوطِ. بِسَبَبِ
مِنْتِ. الَّذِي. حَرَسَ فِي. مَدْرَسَتِي. وَمَا مَالْجَمَالُ لَهَا. وَمَا
الْإِبْتِسَامُ. لَهَا. وَمَا النَّظَرُ. لَهَا. وَذٰلِكَ السَّبَبُ الَّذِي.
أَذْهَبَنِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ. وَلٰكِنْ فَارَقْتُهَا فِي. سَبِيلِ.
حَيَاتِي. وَرَأَيْتُ فِي. مَنَامِي. كَلَامَهَا. وَنَظَرَتَهَا. وَأَنَا
فَرْحَانٌ. بِهٰذَا. كَثِيرَةٌ. حَقًّا. هٰذِهِ. الْإِخْصَاصَةُ. أَجْمَلُ بَيْنِي.
إِلَى. الْمَدْرَسَةِ. وَمَا كَلَامُهَا فِي. الْيَوْمِ. الَّذِي. فَارَقَ.
بَيْنِي. وَبَيْنَهَا.

أُمِّي ذَهَبَتْ. بِي إِلَى شَاطِئِ. الْبَحْرِ. بِقُرْبِ. مِنَ الْبَيْتِ
فِي أَيَّامِ طُفُولَتِي. مَضَى سَاعَةٌ. كَثِيرَةٌ. مَعَ أُمِّي هُنَا.
بِإِسْتِمْتَاعِ. الْمَنَاظِرِ. الطَّبِيعَةِ. هٰذَا الْوَقْتُ. الرَّحْمَةُ. فِي. حَيَاتِي.

إِشْتَرَيْتُ قَلَائِدَ ذَهَبِيَّةً وَحُلْوَيَاتٍ لِأُمِّي فِي حَيَاةٍ مِهْجَرِيَّةٍ. أَتَمَنَّى أَنْ أَنْظُرَ فِي وَجْهِ أُمِّي إِبْتِسَامَةً حَنَانِيَّةً. وَأُقَبِّلَ أُمِّي. وَأَسْأَلَ الْعَفْوَ لِأُمِّي بِسَبَبِ لَمْ أَتَّصِلْ بِهَا".

"يَا سَيِّدِي، وَصَلْتُ ~~مَاذَا أَجْرَمْ~~ إِلَى". قَدْ أَنْهَظَنِي كَلَامُ السَّائِقِ. وَسَأَلَ أَيْضًا: "أَنَحْنُ إِلَى الْيَسَارِ أَوِ الْيَمِينِ؟" قُلْتُ: "إِلَى الْيَسَارِ". وَوَصَلَ السَّيَّارَةُ إِلَى مَكَانَ الَّذِي كَانَ بَيْتِي الصَّغِيرِ. وَمَا رَأَيْتُ كُوفًا هُنَا. وَسَأَلْتُ أَهْلَ بَيْتٍ هُنَا. فَرَأَيْتُ رَجُلٌ شَيْخٌ فِي الطَّرِيقِ. فَسَأَلْتُ لِرَجُلٍ: "أَيْنَ بَيْتُ آمِنَةَ؟". ذَكَرَ الرَّجُلُ كَثِيرًا. ثُمَّ قَالَ: "~~يَعِيشُ~~ الْآنَ يَعِيشُ فِي الْمَلْجَأِ الْمُسِنِّ فِي الْمَدِينَةِ. وَلَهَا إِبْنٌ وَهُوَ هَاجَرَ مِنْهَا قَبْلَ عِشْرِينَ سَنَةً. يَعِيشُ بِسَبَبِ النَّا الْفَوَارِدِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَلَدِ"!

وَامْتَلَأَ فِي مَنْظَرِي ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ عَلَى قَيْسِ الْوَحِيدَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. قَدِ انْقَطَعَ مَنِ الْبَاقِي لِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. وَسَخَرَنِي بِنَاءُ الَّذِي كَانَ بَيْتِي شَعْشُعًا سُخْرِي. مَاذَا حَصَلْتَ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الطَّوِيلَةِ وَالشَّقَاوَةِ الْمُرْتَفِعَةِ تُقَبِّلُ السَّمَاءَ. وَالْبُيُوتُ الْفَاخِرَةُ تُفَاخِرُ

عَلَى وَجْهِي وَأَنَا مُشْرِقُ رَأْسِي وَالْحُزْنُ كَالْأَمْوَاجِ وَالظُّلْمَةُ
لَيْسَ لِي نُورُ الْإِخْرَاجِ مِنْهَا وَأَنَا غَرِيبٌ فِي وَلَبِينَا
الْأَرْضِ. وَأَنَا ظَالِمٌ. وَأَنَا ظَالِمٌ فِي الْعَالَمِ. وَأَنَا وَحِيمٌ
الدُّنْيَا. كَيْفَ أَرَى أُمِّي؟ أُرِيدُ أَنْ أَرَى أُمِّي. إِنْشَاءَ اللَّهُ
"صَاحِبِي، مَاذَا نَفْعَلُ؟". سُؤَالُ السَّائِقِ وَانْهَطَ
مِنَ الْقِطَارِ. فَسَأَلَ لِسَائِقِ: "نَذْهَبُ إِلَى الْمَلْجَأِ الْمُسِنِّ
فِي الْمَدِينَةِ الْقَرِيبِ". إِنْطَلَقَ سَيَّارَةُ. نَحْوَ الْمَلْجَأِ
الْمُسِنِّ. وَوَصَلَ السَّيَّارَةُ إِلَى مَكَانِ الَّذِي مَلْجَأُ الْمُسِنِّ.
فَرَأَى أُمُّهُ الْعَزِيزَةُ فِي هَذَا الْمَلْجَأِ الْمُسِنِّ. إِذَنْ
سَأَلَ الْعَضْوَ بِسَيَّارَتِهِ. هَذَا الْأُمُّ هِيَ سَنَظُرُ لِإِبْنِهَا
بِحُبٍّ عَمِيقٍ. ~~هَا~~ الْأُمْنِيَّةُ الْأُمِّ لِرَأْيِ إِبْنِهَا. الْآنَ
هِيَ مَسْرُورٌ جِدًّا لِتَنْظُرَ إِبْنِهَا الْمُحِبِّ. فَسَالَ الدُّمُوعُ الْخَيْرِ
سَنَذْهَبُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مَعَ إِبْنِهَا. فَفَكَّرَتْ
بِحُبٍّ عَمِيقٍ. ~~بِحَسِيبٍ~~ أَنَّ الْمَوْجُ ~~هَا~~ يَنْظُرُهُمْ
بِمَسْرُورٍ. ~~شُحُبٌّ~~ هَذِهِ الْقِلَادُ ذَهَبِيٌّ وَحَلَوِيَّاتٌ جِدًّا.
بَعْدَ الْأَيَّامِ. سَنَذْهَبُ إِلَى الْخَلِيجِ مَعَ إِبْنِهَا.
الْآنَ يَعِيشُ مَعَ أَفْرَاحِ جَدِيدَةٍ. عَلَى سَاحِلِ
الْآمَالِ. وَقَفَتْ نَاظِرَةً إِلَى حَيَاةٍ زَاهِرَةٍ. هَذَا الرَّجَاءُ الْأَلَةُ
الْأُمُّ. وَزِرُ وَاحِدَةٍ فِي كُلِّ الْوَقْتِ ~~الْخَطِرِ~~ الْخَطِرِ.
الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ.